ليفيناس والتقاء حكمة الفلسفة بحكمة الدين
Levinas and the encounter between the wisdom of philosophy and the wisdom of religion

الطالب الباحث: رضوان الفجري
redouane.fajri@uit.ac.ma
تحت إشراف الأستاذ: د.أحمد الفرحان
ferhane32@yahoo.com
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل-القنيطرة، المغرب

ملخص:

ينتقد إيمانويل ليفيناس أطروحة هايدغر القائلة بأن الوجود هو الموضوع الحقيقي والوحيد للفلسفة، كما ينتقد التقليد الفلسفي الغربي بدعوى تجاهله لما تحتويه النصوص الدينية من معان وحكم. إذ يرى ليفيناس أن هناك منابع أخرى للحكمة إلى جانب الفلسفة، لهذا فهو يعتبر النصوص الدينية والأدبية بمثابة تجارب ما قبل-فلسفية تحمل بداخلها حكمة ونزعة إنسانية. لقد استلهم ليفيناس بعض حدوسه الفلسفية من النصوص الدينية من أجل تأسيس فلسفة إيتيقية جذرية، تجعل من الغيرية عمادها، ومن المسؤولية المطلقة تجاه الإنسان الآخر أهم مقاصدها. إنه فيلسوف يفكر من داخل الأدب والدين، وليس فقط من داخل الفلسفة، وهو الأمر الذي ساهم في خصوبة عمله الفلسفي. سنحاول في هذه المقالة دراسة الصلة الإشكالية التي تجمع بين الفلسفة والدين عند ليفيناس مع النظر في مساحة التقاطع بينهما، وذلك بغرض فهم الكيفية التي يحاول من خلالها ليفيناس ترجمة حكمة الدين إلى لغة الفلسفة.

كلمات مفتاحية: الدين، الفلسفة، الأنطولوجيا، الإيتيقا، الكلية.

Abstract:

Emmanuel Levinas criticizes Heidegger's thesis that existence is the only true subject of philosophy, as well as the Western philosophical tradition that ignores the meaning and wisdom of religious texts. Levinas argues that there are sources of wisdom other than philosophy, and sees religious and literary texts as pre-philosophical experiences that contain wisdom and humanism. Levinas draws his philosophical intuitions from religious texts to establish a radical ethical philosophy, in which alterity is the foundation and absolute responsibility towards other human beings is the most important objective. He is a philosopher who thinks from literature and religion, not just from philosophy, and this has contributed to the fruitfulness of his philosophical work. In this article, we will attempt to examine the problematic relationship between philosophy and religion in Levinas, while looking at the space of intersection between them, in order to understand how Levinas attempts to translate the wisdom of religion into the language of philosophy.

Keywords: Religion, philosophy, ontology, ethics, totality.

1- مقدمة:

أمـام صـعود الهتلريـة بألمانيـا وبلـوغ النازيـة والفاشـية أقصى درجـات التطـرف والإجـرام، لـم يجـد إيمانويـل ليفينـاس مناصـا مـن الكشـف عـن جـذور هـذه النزعـات الشـمولية في الفلسـفة الغربيـة وخصوصـا في الأنطولوجيـا الـتي تعـطي الأولويـة للأنـا وتقصي الآخـر وتضـفي الطـابع الكلي عـلى المعرفـة. وهـو مـا جعلـه يعـود إلى الفلسـفات الـتي تعـلي مـن قيمـة مـا هـو إنسـاني، وإلى الـتراث الـديني اليهـودي ليسـتلهم منـه فلسـفته الإيتيقيـة، الـتي تـدعو إلى مسـؤولية لامتناهيـة تجـاه الآخـر. إذ يـرى ليفينـاس"أن الفكـر الفلسـفي يرتكـز عـلى تجـارب مـا قبـل فلسـفية"(Levinas,1982,p.14)، وفيمـا يخصـه فقـد تـأثر ليفينـاس الشـاب بـالأدب الـروسي؛ وخصوصـا بالأسـئلة الميتافيزيقيـة الـتي تسـم أعمـال دوستويفسـكي. أمـا بخصـوص التجـارب الروحيـة فـإن قراءتـه للتـوراة -في سـن المراهقـة-ولـدت لديـه فضـولا روحيـا؛ وهـو مـا عكسـه لاحقـا مـن خـلال قراءاتـه وشروحاتـه التلموديـة. كمـا سـاهمت التجـارب التاريخيـة الـتي مـر بهـا في تشـكل وعيـه، كمـا نبهتـه إلى صـعوبة الوجـود في هـذا العـالم، وذلـك مـن خـلال وقوفـه شـاهدا عـلى الأذى الـذي تسـبب فيـه الإنسـان لأخيـه الإنسـان إبـان الحـربين العـالميتين الأولى والثانيـة. ولعـل هـذه التجـارب هي مـا جعـل مـن ليفينـاس فيلسـوفا في ملـتقى مسـارات مختلفـة؛ قادتـه أولا إلى دراسـة فلسـفة هـوسرل وهايـدغر، و ثانيـا إلى دراسـة النصـوص التلموديـة وتقـديم قـراءات فيهـا. كما وضعت الأسئلة الإيتيقية والميتافيزيقية في صلب اهتماماته الفلسفية.

إذا كـان نيتشـه قـد قـال بمـوت الإلـه وأعلـن هايـدغر مـن بعـده عـن نهايـة الميتافيزيقـا، وإذا كانـت أهـم أشـكال الفكـر وأكثرهـا هيمنـة في القـرن العشريـن: التحليـل النفسي الفرويـدي، وعلـم الاجتمـاع الماركسي، والفلسـفة النيتشـوية والوجوديـة، قـد حملـت بـداخلها طابعـا نقـديا تجـاه المعتقـدات الدينيـة ومـدى إسـهامها في بنـاء الحيـاة الشخصـية والاجتماعيـة والثقافيـة. فـإن الفلسـفة المعـاصرة ممثلـة في ليفينـاس قـد عـادت للاهتمـام مـن جديـد بـالمقولات الدينيـة والإيتقيـة، وذلـك لإظهـار أهميتهـا في إضـفاء المعـنى عـلى الوجـود الإنسـاني. وإذا ذلـك كـذلك، يمكننـا التسـاؤل: كيـف تمكـن ليفينـاس مـن اسـتثمار

المعـاني الدينيـة في بنـاء فلسـفته الإيتيقيـة؟ وإلى أي حـد نجـح في عمليـة الوصـل بـين الفلسفة والدين؟ وما دلالة إحالته إلى الدين في نصوصه الفلسفية؟

سـنحاول الإجابـة عـن هـذه الأسـئلة، وذلـك بالاسـتناد عـلى مقاربـة تحليليـة نقديـة، سـعيا منـا إلى إظهـار أن هنـاك إمكانيـة للمصـالحة بـين الـدين والفلسـفة في فكـر ليفينـاس، إذ إنه يقدم طريقة فريدة للتفكير في الدين ضمن أفق الفكر المعاصر.

2- حكمة الدين: انفتاح الذات على الآخر في النصوص الدينية:

1.2 التوراة:

يعـد البعـد الـديني أحـد التجـارب "الماقبـل فلسـفية" الـتي سـاهمت في تأسـيس فلسـفة ليفينـاس. حيـث يـرى أن الديانـة اليهوديـة والـنص التـوراتي يتصـالحان بسـهولة مـع الفلسـفة، دون أن تكـون هنـاك حاجـة مفتعلـة للتوافـق بينهمـا. لهـذا نجـده يكتـب: "إن نصـوص الفلاسـفة الكبـار-مـع المكانـة الـتي يأخـذها التأويـل في قـراءتهم-تظهـر لي أنهـم أقـرب للتـوراة مـن معارضـتها، بـالرغم مـن أن مـا هـو ملمـوس في المواضـيع التوراتيـة لا يـنعكس بشـكل تلقـائي في الصـفحات الفلسـفية. لكـن لـم يكـن لـدي انطبـاع-في بـداياتي-بـأن الفلسـفة ملحـدة جوهريـا، ولا أعتقـد أنهـا كـذلك إلى اليـوم"(Levinas,1982,p.14). إن اليهوديـة في نظـر ليفينـاس "تعـني-قبـل كـل شيء-دينـا ونظامـا مـن المعتقـدات، ومـن العـادات والتعـاليم الأخلاقيـة المؤسسـة انطلاقـا مـن التـوراة، والتلمـود، وانطلاقـا مـن أدب الحاخامات"(Levinas, 1982, p.47).

يـرى ليفينـاس أنـه إذا كـان الباعـث عـلى التسـاؤل الفلسـفي هـو قلـق وجـودي أو دهشـة أمـام العـالم أو وعي طـارئ برتابـة الـزمن وجـدوى الحيـاة، فـإن نفـس الأسـئلة/التجارب قـد تـدفع الإنسـان-حسـب ليفينـاس-إلى محاولـة إيجـاد أجوبـة لهـا مـن خـلال قـراءة النصـوص الدينيـة. لأن غايـة الكتـب المقدسـة هي أن تكـون تعبـيرا عـن حيـاة الإنسـان ووجـوده. ويـرى ليفينـاس أن انهمـام الأنـا بذاتـه يخـتفي أثنـاء قـراءة "التـوراة" بوصـفها نصـا دينيـا، ذلـك أن هـذه القـراءة تتعـالى عـلى تمجيـد الهيمنـة والتسـلط عـلى الآخـر. غـير أنـه يشـترط في هـذه القـراءة عـدم السـقوط في البحـث عـن معيـار مطلـق أو عـن فكـرة مثاليـة للحيـاة. وعـلى هـذا

الأساس يكتب ليفيناس: "ستكون التوراة -بالنسبة إلي-هي الكتاب بامتياز"(Levinas,1982, p.12).

لقد ساهمت قراءة ليفيناس للتوراة في بلورة فكره الإيتيقي، حيث اكتشف في التوراة معانٍ تقترب من رؤيته الخاصة لما هو إنساني. وهو ما يؤوله ليفيناس من خلال النظر في اشتراطات العلاقة مع الآخر كلقاء، واعتباره أن حضور البعد الإلهي يكمن في هذا اللقاء. إذ تنص التوراة على أنه ينبغي على المؤمنين الذين يريدون التقرب إلى الإله تحرير عبيدهم وإطعام الجائعين من الناس. كما استلهم من التوراة الفكرة القائلة بأن محبة القريب هي شرط لحب الذات، فقبل الذات هناك دائما الآخر. وهو ما يعني أن التوراة تعطي الأولوية للآخر على حساب الأنا. ذلك أن الآخر يمثل دائما الأرملة واليتيم والغريب، بل يذهب ليفيناس إلى القول بأن محبة الآخر هي التي تؤسس وتبرر تحريم النص التوراتي المطلق للقتل قائلا بصيغة آمرة: "لا تقتل أبدا"، وفي ذلك تعبير عن وجود عنوانه إمكانية العيش والتضحية من أجل الآخر واحترام غيريته المطلقة.

إن النص التوراتي نص يتساءل في نظر ليفيناس، ويعلمنا أن الانهمام بالذات هو أمر ثانوي، وأن ما هو أساسي هو المسؤولية تجاه الإنسان الآخر. لهذا يجب قراءة التوراة ما وراء بعدها التيولوجي والميتافيزيقي. يقول ليفيناس: "لا تهدف التوراة إلى المعرفة الحقة بالإله، لكنها تهدف فقط إلى تعليم قاعدة عملية مستلهمة من المحبة الخالصة وغير المبالية بمصلحتها أمام الإله"(Levinas,1976,p.176). لهذا يرى ليفيناس أن التوراة أساسية للفكر، فإذا كانت الفلسفة اليونانية تؤكد على أهمية المعرفة وأن على الإنسان أن يعرف نفسه بنفسه، فإن التوراة تعلمنا بأن الإنسان الحقيقي هو الذي يحب قريبه.

2.2 التلمود:

يعتبر التلمود أحد المصادر الأساسية التي ألهمت ليفيناس فلسفيا. وهو النسخة المكتوبة لدروس ومناقشات علماء الدين اليهود، الذين كانوا يلقون دروسهم في فلسطين وبابل ما بين القرنين الثاني والسادس للميلاد. ويتضمن التلمود بشقيه الشفوي والمكتوب الإشكالات الأخلاقية، وكل ما يتصل بالشرائع اليهودية من جانب

طقـوسي. كمـا يـرتبط التلمـود أيضـا بالحضـارة الـتي تأسسـت انطلاقـا مـن الديانـة اليهوديـة. وقـد اسـتلهم ليفينـاس مـن التعـاليم التلموديـة الفكـرة الرئيسـية القائلـة: بأولويـة الالـتزام الإيتـيقي كمعانـاة "حـتى المـوت" مـن أجـل الآخـر، والانهمـام بـه وبكـل غريـب. إذ إن الهـوس بـالآخر الـذي يعـبر عنـه التلمـود، يجعـل الإنسـان معنيـا بالمسـؤولية اللامحـدودة نحـو الآخـر. يقـول ليفينـاس: "في الواقـع، أنـا مسـؤول عـن الآخـر حـتى عنـدما يرتكـب جرمـا. فهـذا هـو أسـاس الـوعي اليهـودي بالنسـبة إلي. وأعتقـد أيضًـا أن هـذا هـو أسـاس الـوعي الإنسـاني: كـل البشـر مسـؤولين عـن بعضـهم الـبعض، وأنـا أكـثر مـن أي شـخص آخر"(Levinas,1991, p.117).

لقـد كـان الـتراث العـبري دائمـا مطبوعـا بـالهوس بالغيريـة، ويـذهب في ذلـك إلى درجـة جعـل حريـة الأنـا مسـؤولية لأجـل الآخـر، إذ إن حريـة كـل إنسـان إنمـا تنبـع مـن الاعـتراف بغيريـة الإنسـان الآخـر وبـاحترام كرامتـه. ويـذهب ليفينـاس إلى القـول: "إن الإيمـان اليهـودي تسـامح، لأنـه يتحمـل بشـكل مسـبق عـبء النـاس الآخـرين" (Levinas,1976,pp.261-262). ويـرى ليفينـاس أن السـهر عـلى حاجـات النـاس لـيس موكـولا-حسـب التلمـود-للعنايـة الإلهيـة. لـذلك وجـب "عـلى الإنسـان أن ينقـذ أخـاه الإنسـان: إذ تقتضي الطريقـة الإلهيـة لجـبر البـؤس عـدم تـدخل الإلـه. ذلـك إن الارتبـاط الحقـيقي بـين الإنسـان والإلـه يتوقـف عـلى ارتبـاط الإنسـان بالإنسـان، وهـو مـا يتحمـل فيـه الإنسـان المسـؤولية الكاملـة، كمـا لـو أنه لا يوجد إله يمكن الاعتماد عليه"(Levinas,1994,p.183).

اسـتلهم ليفينـاس مـن التلمـود أيضـا تصـوره للإلـه وللامتنـاهي، فلـم يعـد الإلـه هـو ذلـك الكـائن المتعـالي، والبعيـد عـن متنـاول النـاس، البـاحثين عنـه في فضـاء خـارج الأرض أو خـارج مـا هـو اجتمـاعي. بـل إن الإلـه يـتجلى يوميـا في العلاقـات بـين النـاس، بمعـنى أنـه لا يوجـد خـارج هـذه العلاقـات الـتي تجمـع النـاس بعضـهم بـبعض. فـأي أرض تخلـو منـه حـتى تعـالوا يطلبونـه في السـماء. لهـذا لا يـتجلى المقـدس في الديانـة اليهوديـة، إلا إذا اعـترف الإنسـان بـالآخر واستضـافه. ويمكـن القـول بصـيغة أخـرى إن اليهوديـة ليسـت مشـغولة بمـا وراء الكينونـة، ولكنهـا منشـغلة بمـا هـو اجتمـاعي وبمعاملـة النـاس لبعضـهم الـبعض. إذ يـرى ليفينـاس أن أهميـة اليهوديـة بمـا هي ديـن توحيـدي تكمـن في بنـاء المجتمـع وفي مـنح

الإنسان إمكانية رؤية وجه إنسان آخر. إن الدين رغبة وليس صراعا من أجل الاعتراف. "إنه الفائض الممكن في مجتمع متساوٍ، أي فائض التواضع المجيد والمسؤولية والتضحية، وشرط المساواة نفسها" (Levinas,1971,p.58). إن النص التلمودي هو في حد ذاته صراع فكري وانفتاح جريء على الأسئلة؛ وليس مجرد تتمة للتوراة، بل يراه ليفيناس نصا عميقا ومجددا، لهذا جعل ليفيناس من قراءاته وشروحاته التلمودية محاولة لربط النصوص التلمودية بالحاضر، ذلك أن تأويل وتطوير الأفكار التلمودية هو أساسي عند ليفيناس. ولعل ذلك ما جعله ينتقد صاحب "رسالة في اللاهوت والسياسة" بسبب تجاهله للتلمود: "ألم يسمع سبينوزا أبدا بالطريقة الصحيحة للتفكير التلمودي؟ فليس هناك شخص فاقد للحس السليم إلى درجة الاعتقاد بأن العقول العظيمة يمكن تفسيرها انطلاقا مما يغذيها في دراستها وفي محيطها. غير أن الخلفية تتضمن سببيتها الخاصة" (Levinas,1976,p.157).

جوابا عن سؤال ماذا يعني له وصفه بالمفكر اليهودي؟ يقول ليفيناس: "أن يتم اعتباري مفكرا يهوديا هو شيء لا يصدمني في حد ذاته. لأني يهودي الديانة، ولدي بالتأكيد قراءات وتقاليد يهودية لا أنفيها. لكنني أرفض هذا الوصف عندما يكون المقصود من ورائه هو التقريب بين تصوراتي الفلسفية وتصوراتي التي ترتكز على التقاليد والنصوص الدينية، دون عناء المرور بالنقد الفلسفي" (Poirié,1987,p.100). ويذهب ليفيناس إلى أن قراءته وتأويله للنصوص الدينية هو أمر مرتبط بالجانب الديني لديه، وليس هو اللحظة الفلسفية لمجهوده الفكري. لذلك فهو يعتبر نفسه مجرد مؤمن عند تعاطيه مع النص الديني، غير أنه يمكن للمؤمن أن يبحث ما وراء الوضوح الذي تبناه، عن وضوح يمكن إيصاله بموضوعية. ذلك أنه "لا يمكن لحقيقة فلسفية أن تتأسس على سلطة النص الديني. بل يجب أن يكون النص الديني مبررا فينومينولوجيا. رغم إمكانية سماحه بالبحث عن علة" (Poirié,1987,p.100).

بالرغم من أن ليفيناس قد يعطي أحيانا أمثلة من النص الديني، إلا أنه لا يقدمها باعتبارها حجة أو دليلا، وكمثال على حرص ليفيناس على التمييز بين البحث الفلسفي

وتأويل النصوص الدينية، يصرح في أحد حواراته بما يلي: "أتعامل مع ناشرين لكتبي، الأول أنشر عنده أعمالي ذات الطابع الديني، والثاني أنشر عنده أعمالي الفلسفية، فأنا أميز بين النظامين دائما"(Poirié,1987,p.111). غير أنه لا يمكن محو أثر الإلهام اليهودي من فلسفة ليفيناس، ولا يمكن تجريد تعاليقه التلمودية من كل فائدة فلسفية. لكن في دراسة فلسفية يجب أن يمر كل ما له صلة بجانب الاعتقاد والفكر الديني عبر العقل الفلسفي، لأن هذا الأخير لا يرتكز على سلطة التقاليد، وعلى ما هو خارق.

3- حكمة الفلسفة: الدين ولوغوس الفلسفة

إذا كان ليفيناس معروفا بكونه فيلسوف الإيتيقا بامتياز، بالإضافة إلى تخصصه في الفينومينولوجيا التي درسها على يدي هوسرل وهايدغر، فإنه لا يستسلم بأي حال من الأحوال للنقاد الذين يرون أن الكلمة النبوية في النصوص الدينية لا تفيد الفلسفة. فقد استطاع موسى بن ميمون في كتابه "دلالة الحائرين" أن يجمع بين الدين والعقل، وبين الإيمان والمعرفة. وسيرا على هذا النهج وظف ليفيناس في كتاباته الفلسفية معجمية خاصة للتعبير عن أفكاره، التي استلهم بعضها من النصوص الدينية، إذ نجده يوظف مصطلحات من قبيل (القرب، الطيبة، الاصطفاء، التضحية الأثر،القداسة...) في نصوصه الفلسفية، وهو ما سمح له بإقامة نوع من الحوار ومد الجسور بين الفكر الفلسفي الإغريقي والفكر اللاهوتي اليهودي. متجاوزا بذلك الحدود الرمزية التي كانت تفصل بينهما.

إن دراسة العلاقة بين الدين والفلسفة عند ليفيناس تستدعي الكثير من الاحتياطات، مخافة الوقوع في قراءة مختزلة أو متعسفة لهذه العلاقة. فإذا كان دومينيك جانيكو يرى أن كتاب "الكلية واللامتناهي" يمثل أصل "المنعطف اللاهوتي" في الفينومينولوجيا الفرنسية (Janicaud,1992)، معتبرا أن هناك نوعا من الخلط المنهجي بين الخطاب الفلسفي والخطاب الديني فيه، فإن هذا الأمر يظهر أن علاقة الدين والفلسفة عند ليفيناس يشوبها التباس ما، ومن ثمة نجد أنفسنا أمام ضرورة طرح السؤال الآتي: ما هي المكانة الحقيقة للدين في فكر ليفيناس؟

للإجابة عن هذا السؤال، ينبغي تحديد المصدر الرئيس للبس في النقاش حول العلاقة بين الفلسفة والدين عند ليفيناس، وهو في نظرنا راجع في كثير من الأحيان إلى خلط بين الدين والعبادة، أو إلى اختزال الدين إلى نظام دوغمائي، أو تبسيط تعقيد الظاهرة الدينية، ناهيك عن نسيان أو تناسي حقيقة أن الدين مثله مثل الفلسفة، يتناول أسئلة أساسية حول معنى الوجود وحول ما تقتضيه العلاقة بين الناس. ذلك أنه لا يمكننا أن نحدد موقع الدين في فكر ليفيناس دون مواجهة هذه الأسئلة الأساسية.

على أن ليفيناس لم يتوقف أبدًا عن مساءلة التقليد الفلسفي في ضوء تساؤل متجذر بعمق في المنظور الديني. والدليل على ذلك هو عنوان عمله الفلسفي الرئيس "الكلية واللامتناهي" الذي قد يكون دالا عن قصده. ذلك أن اقتران مصطلح "الكلية" بـ"اللامتناهي" في هذا العنوان، معناه أنه إذا كان التقليد الفلسفي يدعي قدرته على الإمساك بالأشياء وإدراجها ضمن كلية، فإن هناك بعدا لامتناهيًا يستعصي- عليه ويظل برانيا بالنسبة إليه. ذلك أن التفكير في اللامتناهي يتطلب أولاً-وقبل كل شيء-مساءلة النظام الهيغلي وادعاءه بإدراك المعنى المطلق لمسيرة الروح. إذ يرى ليفيناس في تقديمه لكتاب ستيفان موسيس "النظام والوحي: فلسفة فرانز روزنتسفايغ" (Franz Rosenzweig1886-1929)، أن فكر روزنتسفايغ لعب دورًا أساسيا في هذا الصدد من خلال كتابه "نجمة الخلاص". "إن فلسفة روزنتسفايغ تفتح أفقاً أصيلاً للمعنى، يقوم على التأمل الصارم في أزمة وضوح العالم، أي في أزمة الكلية والنسق الهيغلي" (Mosès,2003,p. 8).

يقول ليفيناس في كتابه "الكلية واللامتناهي": "لقد أثارت معارضة فكرة الكلية انتباهي في كتاب"نجمة الخلاص" لفرانز روزنتسفايغ" الذي تتم الإحالة إليه في هذا الكتاب باستمرار. لكن يرجع الفضل في تقديم وتطوير المفاهيم المستعملة في هذا الكتاب إلى المنهج الفينومينولوجي" (Levinas,1971,p.14). لقد استلهم ليفيناس نقده لفكرة الكلية (totalité) من روزنتسفايغ، ولإبراز الأهمية التي يعطيها ليفيناس لنقد مفهوم الكلية نورد ما كتبه بخصوص فلسفة روزنتسفايغ:"تكمن جدته في التنديد بالطابع الأولي لنوع من العقلانية: تلك[...]التي تقتضي- النظر إلى التجربة الطبيعية

والاجتماعية بوصفها كلية، واستخراج وخلق تسلسل بينها وبين باقي المقولات، إلى درجة بناء نسق يشمل حتى الدين نفسه. لكن فلسفة روزنتسفايغ تسعى-على العكس من ذلك-إلى التفكير في الدين-(الخلق، الوحي، الخلاص)-بوصفه فضاءً أصليا لكل معنى، يشمل حتى تجربة العالم والتاريخ"(Wolff, 2007, p.16).

تتجلى جدة فلسفة "روزنتسفايغ"-في نظر ليفيناس-في تكسير فكرة الكلية، بفضل مفاهيمه الثلاثة: الخلق، الوحي، الخلاص. لكن السؤال يطرح هنا بخصوص علاقة هذه المفاهيم الدينية بالتفكير الفلسفي؟ وكيف غير روزنتسفايغ من وقعها بالشكل الذي أصبحت فيه قابلة للتوظيف الفلسفي من طرف ليفيناس؟ فمن خلال تعريفه للدين بوصفه "ما يرسم العناوين الأولى للوجود، بدل أن يكون مضافا لنظام قبلي. يذكرنا ليفيناس بقول روزنتسفايغ في كتابه "نجمة الخلاص": "إن الإله لم يخلق الدين، وإنما خلق العالم" (Wolff, 2007, p.18).

يذهب ليفيناس إلى أن الخلاص مفهوم إنساني وليس إلهيا، من حيث إنه يسمح للأفراد بتجنب إدراجهم أو استعادتهم ضمن تاريخ كوني يبتلعهم ككائنات متناهية (وهي الصورة التي يعطيها هيغل للتاريخ)، بالإضافة إلى أن الخلاص يمنحهم القدرة على الفعل في التاريخ (Levinas,1976). إن هذا المرور من وضعية فلسفية إلى وضعية دينية، يدفع ليفيناس الى القول بأن قاطرة ما هو حقيقي هو التاريخ الديني، لأنه يتحكم في التاريخ السياسي. إنه موقف روزنتسفايغ المضاد لهيغل. ووجب الإضافة بأن نقد الكلية، مع المكانة الخاصة لما هو إنساني في فلسفة روزنتسفايغ يجعلان منه أحد الفلاسفة المؤثرين في عصرنا هذا. وإذا كان ليفيناس قد اتبع روزنتسفايغ في نقده لمفهوم الكلية، فإن غرضه من وراء ذلك كان هو البحث عن طريقة لتجاوز الوجود، وهو ما وجده في الهروب من سؤال الوجود نحو سؤال الموجود/الإنسان.

ينتقد ليفيناس أنطولوجيا هايدغر بسبب طابعها الحيادي والأناني تجاه الآخر وكذلك بسبب طابعها الكلياني، كما يحتج ليفيناس على أطروحة هايدغر القائلة بأن الوجود هو الموضوع الحقيقي والوحيد للفلسفة. ويعتقد ليفيناس بأن التقليد الفلسفي

الغـربي قـام بصـفة دائمـة بتجاهـل الحكمـة اليهوديـة وهـو مـا سـعى ليفينـاس إلى تداركـه مـن خـلال مسـاهمته الفلسـفية، إذ يـرى ليفينـاس أن اسـتلهام المعـنى مـن النصـوص الدينيـة لا يتعـارض مـع الفلسـفة، مـا دام أن هـذه الأخـيرة تفكـر في المعـنى. ولعـل ذلـك مـا جعلـه يقـول: "لقـد تغـذينا مـن التـوراة عـلى الأقـل بـنفس القـدر الـذي تغـذينا بـه مـن الفلاسـفة المـا-قبـل سـقراطيين" (Levinas,1972,p.107). ذلـك أنـه انطلاقـا مـن التقـاطع بـين هـذين التقليـدين سـيعيد ليفينـاس تعريـف الفلسـفة. غـير أن الآيـات الـتي يحيـل إليهـا ليفينـاس في بحثـه الفلسـفي لـيس لهـا وظيفـة الإثبـات، إذ نجـده يقـول: "لـيس للآيـات التوراتيـة هنـا وظيفـة البرهـان، بيـد أنهـا تشـهد عـلى تقليـد وعـلى تجربـة. لكـن ألـيس لهـا نفـس الحـق في أن يـتم الاقتبـاس منهـا، مثـل مـا يـتم الاقتبـاس مـن هولـدرلين وتراكـل؟" (Levinas,1972,p.108) ، وهـو مـا يعـني أنـه عـلى الفلسـفة أن تأخـذ المعـاني الدينيـة مأخـذ جـد، مـادام أن الفلسـفة تفكـر في المعـنى. ذلـك أن الموقـف الإنسـاني يحتـاج دائمـا إلى وضـع تفكـيري أشـمل يلـم بمجمـل إمكاناتـه وعلاقاتـه اللامتناهيـة. إذ "تمـنح الـديانات التوحيديـة وسـيلة للهـروب مـن الكينونـة ومـن الأنطولوجيـا، والتوحيديـة هنـا لا يـتم فهمهـا هنـا بوصـفه اعتقـادا دينيـا، وإنمـا بوصـفها مبـدأ أساسـيا للثقافـة الأوروبيـة" (Caygill, 2002, p.45).

يقـول ليفينـاس في مقدمـة كتـاب" آخـر الوجـود، أو مـا وراء الماهيـة": "إن سـماع إلـه لـم تصـبه لوثـة الوجـود، هـو إمكانيـة إنسـانية ليسـت أقـل أهميـة(...)من سـحب الوجـود مـن النسـيان"(Levinas,1974,p.10). ويـرى ليفينـاس أن وحـده التفكـير في المسـألة الدينيـة يمكنـه أن يسـمح لنـا بمقاومـة الغوايـة الـتي تقـدمها لنـا فلسـفة هايـدغر: اخـتزال الكـائن البشري في الانهمـام بوجـوده عينـه، وتسـمح لنـا كـذلك بمقاومـة الفكـرة القائلـة بـأن الوجـود لأجـل المـوت يسـمح مـن المنظـور الهايـدغري بالإمسـاك بمعـنى الوجـود في كليتـه، والـذي هـو دائمـا وجـود خـاص بالأنـا. عـلى خـلاف ذلـك، إن منظـور روزنتسـفايغ يقودنـا إلى مـا يسـميه ليفينـاس بالعلاقـة وجهـا لوجـه مـع الإنسـان الآخـر، هنـاك حيـث ينبهنـا الـدين إلى اسـتحالة الإحاطـة بمعـنى الآخـر في إطـار نسـق شـمولي، مـن ثمـة فهـو يجبرنـا عـلى إعـادة التفكـير في المقـولات التقليديـة لعلاقتنـا بـالآخر. لكـن هـل هـذا معنـاه أننـا مـدعوون في

نهايـة المطـاف إلى تـرك مجـال الفلسـفة لصـالح الـدين؟ جوابـا عـن هـذا السـؤال يمكـن القـول إن فلسـفة ليفينـاس لا تقـول بـذلك، لكنهـا أظهـرت بوضـوح أنـه مـن الممكـن مقاربـة المعـاني الدينيـة مـن منظـور فلسـفي، وفي هـذا السـياق تكتسـب رغبتـه في القطيعـة مـع فلسفات الكليّة معناها الكامل.

ولَمَّـا "كانـت كـل روحانيـة -بالنسـبة للتقليـد الفلسـفي الغـربي-تجـد أساسـها في الـوعي وفي اسـتعراض الوجـود، وفي المعرفـة"(Levinas,1974,p.126)، فـإن فلسـفة ليفينـاس تجبرنـا عـلى إعـادة التفكـير في علاقتنـا بالإنسـان الآخـر، كمـا تـدعونا أيضًـا إلى إعـادة تأويـل علاقتنـا بالتقاليـد الدينيـة والإيتيقيـة، لـنرى إلى أي مـدى تسـتمر هـذه العلاقـة في إضـفاء المعـنى عـلى وجودنـا وعلاقتنـا البـين-إنسـانية. ذلـك أن ليفينـاس يقـدم لنـا العديـد مـن وجهـات النظـر الـتي يجـب أن نوليهـا اليـوم اهتمامًـا كبـيرًا، لأن طريقتـه في التأويـل تسـمح لنـا بإعـادة قـراءة النصـوص الدينيـة في ضـوء جديـد، لكـن مـع الاحـتراز مـن كـل خلـط بـين الـدين والفلسـفة. إذ يـرى ليفينـاس أن "الكليـة واحتضـان الكينونـة، أو الأنطولوجيـا، لا تحمـل السرـ المطلـق للوجـود. إن الـدين يعمـل عـلى اسـتدامة العلاقـة بـين "الهـو هـو" (le même) والآخـر عـلى الـرغم مـن اسـتحالة الكـل، لأن فكـرة اللامتنـاهي هي البنيـة النهائية"(Levinas, 1971, p.79).

ويـذهب ليفينـاس في سـياق توضـحيه لمعـنى وحـدود إحالتـه إلى الـدين كمرجـع، إلى القـول:"إن نقطـة انطـلاقي غـير لاهوتيـة عـلى الإطـلاق، إذ لا أود تعريـف أي شيء مـن خـلال الإلـه، لأن الإنسـان هـو الـذي أعرفـه. بـل إن الإلـه هـو الـذي يمكـن تعريفـه مـن خـلال العلاقـات الإنسـانية ولـيس العكـس(...) كمـا أتبـنى مصـطلح "الـدين" للدلالـة عـلى الحالـة الـتي توجـد فيهـا الـذات في وضـعية يسـتحيل عليهـا الهـروب مـن المسـؤولية"(Levinas, 1991, p.110).

إن الـدين بالتحديـد هـو الـذي يضـمن المحافظـة عـلى التعدديـة، لأنـه يحـمي العلاقـات البـين-إنسـانية (البينذاتيـة) مـن الاخـتزال ضـمن كليـة. غـير أن الاسـتناد عـلى الـدين لا يلـغي المسـافة الـتي لا يمكـن تجاوزهـا مـع الفلسـفة، ولكـن في الوقـت نفسـه لا تخفـف هـذه المسـافة مـن حتميـة مرجعيـة أحـدهما للآخـر، شريطـة ألا تُفهـم هـذه المرجعيـة كمرجعيـة

منطقيــة أو كمرجعيــة يمكــن أن يكتشــفها التأمــل، بــل كحــدث أخــلاقي، يشــهد عــلى مسـؤولية لا متناهيـة تجـاه الآخـر. لهـذا يقـول ليفينـاس:"نقترح أن نطلـق اسـم الـدين عـلى الصـلة الـتي تنشـأ بـين "الهـو هـو" والآخـر، دون أن تشـكل كليـة"(Levinas, 1971, p.30).

إن الـدين هـو البنيـة الملموسـة والنهائيـة للعلاقـة وجهـا لوجـه، تلـك الـتي لا تُضـفي الطـابع الكـلي عـلى الكائنـات المنفصـلة، ولا تجعلهـا تابعـة للمعرفـة والموضـعة، ولكـن مـع ذلـك حيـث يكـون الإنسـان الواحـد ذا أهميـة ومعـنى بالنسـبة للآخـر، لأنهمـا يرتبطـان بعلاقـة أخلاقيـة سـابقة للمعرفـة. وهكـذا يرسـم "الـدين" نوعـا مـن التعـالي، لا يمكـن اختزالـه في الكليـة، وهـو مـا يسـميه ليفينـاس أيضًـا بالعلاقـة الميتافيزيقيـة أو العلاقـة الإيتيقيـة. ينـافح ليفينـاس عـن الأطروحـة القائلـة بـأن "الدلالـة تسـبق الماهيـة"(Levinas,1974,p.16)، ذلـك أن سـؤال المعـنى يسـبق-في نظـره- سـؤال حقيقـة الوجـود. مـن ثمـة فـإن الأنطولوجيـا لا تكـون كافيـة في نظـره لبنـاء علاقـة إيتيقيـة بـين النـاس، لأن لهـا طـابع كلياني مغلـق وأنـاني، وهـو مـا يقصي-كل برانيـة ويخـتزل غيريـة الآخـر في الأنـا، طالمـا أن الأنـا ينظـر إلى الوجـود باعتبـاره وجـودا خاصـا بـه. لهـذا يـرى ليفينـاس أن هنـاك حاجـة ماسـة لتوسـيع مجـال المعـنى، مـن خـلال الانفتـاح عـلى التجـارب المـا-قبـل فلسـفية مـن ديـن وأدب، وذلـك لبنـاء إيتيقـا تجعـل مـن المسـؤولية تجـاه الإنسـان الآخـر أهم مقاصدها.

- **الإيتيقا بوصفها فلسفة أولى:**

إذا كانـت الفلسـفة تشـترط التفكـير بوضـوح وإعمـال الحـس النقـدي، وتشـترط أيضـا الاسـتقلالية في إصـدار الحكـم، فـإن الفلسـفة -في نظـر ليفينـاس-لا تمثـل المكـان الـذي يتحقـق فيـه المعـنى الأول للموجـود. وهـو يشـير مـن خـلال ذلـك إلى فلسـفته ذاتهـا، معتـبرا أن كـل فلسـفة تنطلـق مـن تجـارب سـابقة عـلى الفلسـفة وفي حالتـه هـو اليهوديـة، الـتي تبـدو له مرادفة للغيرية، وللمسؤولية المطلقة تجاه الآخرين (بوطيب،2018، ص 28).

إذا كـان النقـد هـو خاصـية "اللوغـوس" الفلسـفي، فـإن الفلسـفة ليسـت فقـط كيفيـة في التفكـير والنظـر لكنهـا أيضـا طريقـة في الكـلام، ذلـك أن الفكـر هـو دائمـا مـتكلم؛ فهـو في نفـس

الآن "حديث عن" و"حديث إلى"، إن الكلام يقتضي- في نفس الوقت معرفة الآخر وتعرف الآخر على الأنا. إذ ليس الآخر موضوعا للمعرفة فحسب، بل تتم تحيته والتحدث معه والاستماع إليه، وهو ما يشترط علاقة إيتيقية أساسها المسؤولية تجاه الآخر. غير أن ليفيناس لم يضع لإيتيقاه قواعد ومعايير حتى لا يتم إدراجها ضمن أية كلية، إنها بمثابة يوتوبيا لما هو إنساني، لهذا نجده يقول: "إن مهمتي ليست هي بناء الإيتيقا، فأنا أحاول فقط البحث عن معناها"(Levinas,1982,p.85). إذ لا يرتكز الفعل الإيتيقي-عند ليفيناس-على الموضعة أو التمثل، بل يتجه مباشرة نحو اللقاء بالآخر، ونحو الإحساس بحقوقه تجاه الأنا. إن كل وعي إيتيقي هو وعي بهذا الاصطفاء، ذلك أن الحدس الأساسي للإيتيقا، في نظر ليفيناس، يكمن في كون الأنا ليس متساوياً مع الآخرين، بل هو مُلزَمٌ بالمسؤولية تجاههم، ومن ثمة يكون أكثر تطلبا تجاه نفسه أكثر من تطلبه تجاه الآخرين. ويتأسس هذا اللا-تماثل الإيتيقي حول الفكرة القائلة بأن انهمام الأنا بالآخر لا يرتبط بانهمام الآخر بالأنا. إذ يرى ليفيناس أن الآخر يعني الأنا حتى ولو تجاهله أو نظر إليه بلا مبالاة. إن الإيتيقا-على خلاف الأنطولوجيا-ترغم الأنا على الخروج من مجال الندية والانتقام إلى مجال المسؤولية اللامتناهية وغير المشروطة تجاه الآخر.

ينافح ليفيناس على أن الإيتيقا هي الفلسفة الأولى بدل الأنطولوجيا، سعيا منه إلى تجاوز مجهولية الكينونة وسيطرتها على الموجودات. وتقوم الإيتيقا عند ليفيناس على قراءة مغايرة للتراث اليهودي الذي تستلهم منه حدوسها، وذلك من خلال ترجمة هذا التراث إلى لغة الفلسفة. إذ يرى ليفيناس أن العلاقة مع الإله تتم بوصفها علاقة مع الناس، وهذا هو أساس العلاقة الإيتيقة التي تجمع بين الوعي بالذات والوعي بالإله. إن معرفة الإله التي يمكن أن نمتلكها، يمكن أن يكون لها معنى إيجابي من خلال الإيتيقا. لهذا يرى ليفيناس "أن الأفق الإلهي ينفتح عبر الوجه الإنساني" (بوطيب،2018، ص17) باعتبار أن هذا الوجه يحمل أمرا مفاده:"لا تقتل أبدا" وهو إلزام إيتيقي وليس أمرا دينيا فقط. ذلك أن الإنسان هو رابط مرور المتعالي، فقد خلق الإله من يمكنه تبليغ رسالته.

إن العلاقة الإيتيقية "سابقة" لتعارض الحريات، وسابقة على الحرب التي تدشّن التاريخ بحسب هيغل. إن وجه الآخر لا يدعو إلى الحرب، بل يفتح نافذة على اللامتناهي. ذلك أن الطريق التي تقود إلى الإله تمر عبر الإنسان، وهذا هو البعد الكوني للديانات التوحيدية، بما فيها اليهودية، الذي يقتضي- أن تكون العلاقة مع الإله تتقاطع مع العلاقة مع البشر- وتتطابق مع العدالة الاجتماعية. وهو ما يعني ربط الجانب الديني بالجانب الإيتيقي. "هناك حركة مزدوجة عند ليفيناس تكمن في التحويل الإيتيقي للوغوس، و"عقلنة" أو بالأحرى ترجمة للحقيقة اليهودية" (بوطيب،2018، ص14). والدليل على ذلك أن المعجمية التي يستعملها ليفيناس في كتابه "آخر الوجود أو ما وراء الماهية" (مثل: الاستعاضة، الإلهام، النبوة، التضحية، الشهادة...) تشير بوضوح إلى أن إيتيقاه مستلهمة من التوراة ومن التلمود. ذلك أن هذا القاموس لم تكن له مكانة في الفلسفة قبل ليفيناس، الذي أقحمه لسبب وجيه، وهو التعريف بتراث" لم تدرك الميتافيزيقا كرامته ومعناه أبدًا، ويشيح عنه الفلاسفة بوجوههم"(Levinas, 1972, p.110).

إن القول بأن الإيتيقا هي الفلسفة الأولى، هو نقطة الدخول لإضاءة العلاقة بين الإيتيقي والديني في فكر ليفيناس. ذلك أن تحليل معنى المسؤولية عنده ينفتح على صياغة فلسفية للمفاهيم الدينية. وهكذا تجد الفلسفة نفسها أمام مجموعة من الظواهر أوسع نطاقًا من أشكال الوعي، يتعلق الأمر بظواهر تشمل المعاني الدينية التي كانت ترتبط تقليديًا بالإيمان وليس بالعقل. يعلمنا ليفيناس أنه من الممكن استثمار المعاني الدينية من خلال استعمال المنهج الفينومنولوجي لبناء فلسفة إيتيقية يكون أساسها المسؤولية اللامتناهية تجاه الآخر. والتي يقول عنها ليفيناس: "إنها مسؤولية سابقة لكل التزام حر"(Levinas, 1978, p.139).

إن التحليل الفينومينولوجي للمسؤولية عند ليفيناس لا يمكن اعتباره خطابًا عن الدين، ولو كان يلتقي معه في مقاصده، ذلك أنه لا يلجأ إلى الدين بوصفه سلطة، وإنما بوصفه تجربة حياة وأفق لظهور معاني إيتيقية، فالمفاهيم الدينية مثل الخلق والاصطفاء والشهادة والتضحية كلها تُعطى لها أهمية من خلال اختزال يعيدها إلى

الموضوع الذي تدل عليه. إذ يتم الأمر كما لو أن التحليل الفينومينولوجي للمسؤولية كافٍ لوحده بغض النظر عن الخلفية الدينية الثاوية وراءها. ذلك أن المفاهيم تبقى وفية للتحليل القصدي، الذي يعني إعادة إنتاج المفاهيم في أفق ظهورها كما تمنح نفسها للرؤية، سواء من خلال الإحالة إلى الحياة أو التجربة أو ما هو ملموس. وهكذا تصبح ظواهر ليفيناس الإيتيقية مفتوحة حتى أمام "اللادينيين"، وذلك بجعلهم يقتربون من أهمية المعاني الدينية في جانبها الأخلاقي. ويمكن القول إن تديّن الذات المسؤولة عند ليفيناس هو نوعٌ من التحويل العلماني للدين إلى أخلاق. "إن فينومينولوجيا المسؤولية لا تدع الظواهر الدينية تسقط في اللاعقلانية أو في الدوغمائية(...) كما لا تترك التجربة الدينية في إيمان صامت، بل تعبر عن أهميتها. وهكذا تأتي الفلسفة لتنقذ الفكر اللاهوتي"(Kosky,2001,p.147). ولعل ذلك ما دفع ليفيناس إلى التأكيد على أهمية الفينومينولوجيا بوصفها منهجا يمكن بواسطته العودة إلى الإنسان في جانبه الملموس والحقيقي، وسيكون الدين أكبر شاهد على ذلك.

خاتمة:

بناءً على ما سبق نخلص إلى أن ليفيناس فيلسوف يفكر أيضا من داخل الدين، وليس فقط من داخل الفلسفة أوضدها، إذ يتعلق الأمر-في نظر ليفيناس-بمنبعين مهمين للحكمة رغم اختلافهما. إن خصوصية فلسفة ليفيناس لا يمكن الإمساك بها إلا ضمن إطار المقارنة بين: "لوغوس" النصوص الدينية و"لوغوس" الفلسفة، ذلك أنه فقط في ضوء لقاءٍ مشابه يكون مكانا لقرب حميمي ولمسافة لا يمكن اختزالها، يمكن فهم سبب تأكيد ليفيناس على أن "اللوغوس هو إيتيقا"، بوصفه نقطة التقاء بين الدين والفلسفة. إن ما يثير الانتباه عند قراءة كتاب"الكلية واللامتناهي" ليس هو التحليل الفينومينولوجي وإنما هو الإحالة إلى النصوص الدينية، ويمكن القول إننا لن نفهم فلسفة ليفيناس جيدا إذا لم نستحضر هذا الأمر بوصفه خلفية للقراءة.

يرى ليفيناس أن الديانات التوحيدية تحمل بداخلها نزعة إنسانية ومعاني إيتيقية، سيكون من المفيد ترجمتها إلى لغة الفلسفة بعد إعمال النظر العقلي فيها، والمقصود بذلك جعل المعاني دينية وتأسيسها فلسفيا، وهو ما لن يتأتى إلا من خلال ربط الجسور بين الدين والفلسفة بعيدا عن أية أحكام مسبقة أو مختزلة. فقد كان رهان ليفيناس هو بناء فلسفة تكون فضاء لالتقاء المعاني الدينية مع نظيرتها الأنطولوجية، مع المحافظة على المسافة التي تفصل بينهما، أي البقاء بعيدًا عن إخضاع الفلسفة لأي نزعة لاهوتية، وذلك من أجل تجديد الفكر الإيتيقي في ضوء مساءلة غير مسبوقة لمعنى العلاقة مع الإنسان الآخر.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية:

بوطيب، رشيد. (2018). نقد الحرية: مدخل إلى فلسفة إمانويل ليفيناس. دار ضفاف. بيروت.

المصادر باللغة الأجنبية:

Levinas ,E. (1994). Les imprévus de l'histoire. Fata Morgana. Montpellier.

Levinas, E. (1991). Entre nous: essai sur le penser à l'autre. Édition Grasset. Paris.

Levinas ,E. (1982).Éthique et infini. Fayard. Le livre de Poche. Paris.

Levinas, E. (1976). Difficile liberté: Essais sur le judaïsme. Albin Michel. Paris.

Levinas, E. (1974). Autrement qu'être ou- au delà de l'essence. Martinus Nijhoff.

Levinas, E. (1972). Humanisme de l'autre homme. Fata Morgana. Paris.

Levinas, E.(1971). Totalité et infini: essai sur l'extériorité. Martinus Nijhoff. La Haye.

المراجع باللغة الأجنبية:

Caygill, H.(2002).Levinas and the political. Routledge. London.

Janicaud, D.(1992). Le tournant théologique de la phénoménologie française.Éditions de l'Éclat. Paris.

Kosky, Jeffrey L. (2001). Levinas and the Philosophy of Religion.USA.

Mosès, S. (2003). Système et révélation et: La philosophie de Franz Rosenzweig. Bayard. Paris.

Poirié, F. (1987).Emmanuel Levinas Qui êtes-vous?.Edition La Manifacture. Lyon.

Wolff, E. (2007). De l’éthique à la justice: langage et politique dans la philosophie de Levinas. Springer. Netherlands.